الإسكندرية .. المكتبة والأكاديمية فى العالم القديم(*)

عرض وتحليل
محمد عوض العايدى

سوف يذكر التاريخ للرئيس محمد حسنى مبارك أعمالاً وإنجازات كثيرة ، ومن بينها جميعاً سيكون إحياء مكتبة الإسكندرية من الرماد أكثرها بقاء وشموخاً . ولا يعود ذلك إلى المبنى وما فيه من روائع ثقافية وعلمية ومعرفية ، إنما إلى المعنى الحضارى الذى بعثه هذا المشروع بأنه أصبح إطلالة وإشراقة على المستقبل .

وسيذكر التاريخ أيضاً أن أساتذة جامعة الإسكندرية كانوا أول من دعى إلى فكرة مشروع إعادة إحياء مكتبة الإسكندرية، وذلك فى مطلع السبعينات من القرن الماضى . وحظيت هذه الفكرة بتأييد من الرئيس حسنى مبارك وبرعاية كريمة من السيدة حرمه ، وتحمس سيادته للفكرة فأصدر قرارات جمهورية بشأن المشروع القومى الرائد ، وتم إقناع منظمة اليونسكو بفكرة المشروع ووافقت على المساهمة فى الدعم المالى له . وكانت البداية الفعلية عندما وضع الرئيس مبارك حجر أساس المكتبة الجديدة فى عام ١٩٨٨م . ثم توالت الأحداث وتعاقبت السنوات تم خلالها تكليف أكبر بيوت الخبرة العالمية فى وضع التصميمات الهندسية والمعمارية[١] وتنفيذها إلى أن تم افتتاحها فى أكتوبر ٢٠٠٢ م بحضور كوكبة من الملوك والرؤساء والزعماء ولفيف من رجال الفكر والثقافة . وما بين وضع حجر الأساس وافتتاح المكتبة واجه المشروع العديد من العقبات الروتينية والبيروقراطية تم التغلب عليها بإرادة مصرية حديدية .

ويجب ألا ننظر إلى مكتبة الإسكندرية الجديدة على أنها مجرد إنجاز هندسى ومعمارى وتكنولوجى نتباهى به بين شعوب البحر المتوسط أو بين مكتبات العالم الكبرى ، ولكن يجب أن ننظر إليها باعتبارها قد سدت نقصاً شديداً كنا فى حاجة إليه وأضافت كنزاً ثقافياً علمياً وأعطت لمصر والمصريين مصدراً

(*) محمد عبد المنعم عامر : الإسكندرية .. المكتبة والأكاديمية في العالم القديم .- القاهرة : المكتبة الأكاديمية ، ٢٠٠٠ .- ١٤١ ص .

(١) فازت مكتبة الإسكندرية بالجائزة العالمية الأولى كأحسن المشروعات الهندسية على مستوى العالم عام ٢٠٠٠م .

للمعارف والعلوم لا تغرب شمسه ولا يأفل نجمه . فهى ليست مكتبة عادية أعيد إحياؤها تختزن بين رفوفها مئات الآلاف أو حتى الملايين من الكتب والدوريات ، وليست متحفاً للمخطوطات والوثائق النادرة ، وليست مبانى فخمة وقاعات للقراءة مزودة بأحدث وسائل الاتصالات الإلكترونية ، بل هى منارة علمية وثقافية يشع منها نور العلم والثقافة والفن وتتجاوز مفهوم المكتبة فى صورتها التقليدية تطل مصر بها على العالم ويطل بها العالم على مصر.

ومبنى المكتبة الجديدة يتكون من ثلاثة مبان يمكن أن تستوعب ثمانية ملايين كتاب وأربعة آلاف دورية، وخمسين ألف خريطة، وخمسين ألف مخطوط . وتضم المكتبة ثلاثة متاحف وخمسة معاهد بحثية، والعديد من المعارض فضلاً عن قبة سماوية ومركزاً متطوراً للمؤتمرات يتسع لحوالى ثلاثة آلاف مقعد . ويبلغ عدد أدوار المكتبة ١١ دوراً بإجمالي مسطح ٨٥٤٠٥م٢ بارتفاع ٣٣ متراً .

هذه كانت مقدمة ضرورية نتعرف من خلالها على عظمة الإنجاز الثقافى الكبير الذى قدمته مصر للمصريين بل لكل شعوب الأرض قبل أن نتعرض للكتاب الذى بين أيدينا الذى يقع فى مقدمة وخمسة عشر فصلاً تضمها مائة وواحد وأربعون صفحة .

يتناول المؤلف فى **المقدمة** تاريخ مدينة الإسكندرية القديمة وأن مؤسسها هو الإسكندر الأكبر، وكان ذلك عام ٣٣١ قبل الميلاد ثم ذيوع صيت المدينة فى عهد البطالسة، حتى أنها أصبحت تعد ثانية مدن العالم، وبلغت ذروتها فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد ، وأنها لم تكن مركزاً دولياً للتجارة فحسب ، ولكنها بمكتبتها الشهيرة وأكاديميتها أصبحت مركزاً علمياً وثقافياً وحضارياً فى ذلك الوقت . ثم تناول المؤلف في عجالة سريعة القضية الأساسية التى تدور حول مكتبة الإسكندرية القديمة فى صيغة سؤال كبير : من الذى أحرق مكتبة الإسكندرية ، وهو السؤال الذى سيجيب عليه المؤلف فى الفصل الخامس عشر .

ويتناول المؤلف فى **الفصل الأول** تاريخ ونشأة مدينة الإسكندرية وتخطيطها وأنها اشتملت على ثلاثة موانىء متجاورة . وأن تصميم المدينة كان على طريقة المدن الهيللينية ذات التخطيط المتعامد ، كما أقيم بها منارتها الشهيرة بارتفاع ٤٠٠ قدم ، كما اشتهرت بحدائقها التى تحوى ملاعب وملاهى عديدة . ثم تناول المؤلف حياة الاسكندر الأكبر وفتوحاته ثم موته ثم يعرج على اللغز الكبير : أين توجد مقبرة الإسكندر الأكبر ويستعرض القصص المختلفة حول مكانها .

وفي الفصل الثانى يتناول المؤلف تاريخ الإسكندرية فى العصور القديمة بشيء من التفصيل من حيث السكان وجنسياتهم وحقوقهم المدنية ، ثم يتناول تخطيط المدينة ومساحتها ومعالمها وموانيها.

ويتناول المؤلف تاريخ مكتبة الإسكندرية وأكاديميتها فى العصور المختلفة اعتباراً من **الفصل الثالث** وحتى الفصل الحادى عشر . ففى **الفصل الثالث** يتناول تاريخ المكتبة والأكاديمية فى عهد بطليموس الأول (٣٠٥-٢٨٣ ق.م.) . ويركز المؤلف في **الفصل الرابع** على دراسة الأكاديمية

Museum وتأسيسها ونشأتها المتأثرة بالأكاديميات اليونانية وأنها كانت تشبه في حدائقها وقاعاتها أكاديميات أثينا وأن تاريخ تأسيسها يعود إلى عامى ٢٩٠-٢٨٤ ق.م. وأنها كانت جزءاً من القصور الملكية بالقرب من الميناء وأن العلماء كانوا يتخذون منها مسكناً لهم وأن حوالى مائة منهم كانوا يشتغلون بها .

ثم يعود المؤلف فى **الفصل الخامس** ليتناول تاريخ المكتبة والأكاديمية فى عهد بطليموس الثانى (٢٨٥-٢٤٧ ق.م.) الذى قد يكون اشترى جزءاً من مكتبة أرسطاطاليس وأضافها إلى مكتبة الإسكندرية. وفى عهده اكتظت المكتبة بالكتب وازداد رصيدها وقد اختلف المؤرخون فى تحديد عدد مجلداتها الذى تراوح بين ٥٤٠٠٠ و ٧٠٠,٠٠٠ مجلد .

ويتناول الكتاب فى **فصله السادس** تاريخ المكتبة والأكاديمية فى عهد بطليموس الثالث ٢٤٧-٢٢١ ق.م.) الذى يعتبر مفترق الطرق بين عهد العظمة السابق وعهد الاضمحلال التالى . واستعرض المؤلف فى هذا الفصل أهم أمناء المكتبة مثل أراطوثينس الذى استدعاه بطليموس الثالث من اليونان حينما ذاع صيته وعهد إليه بإدارة المكتبة ، وكذلك أرسطفانيس البيزنطى ، وأيضاً أبولونيوس الإسكندرى وأرستارقس الذى كان مربياً لبطليموس الخامس .

وفى **الفصل السابع** يستعرض المؤلف تاريخ المكتبة والأكاديمية فى الفترة من ٢٢١-١١٦ ق.م. وهى فترة الضعف والانحلال ، وقد حكم مصر فى هذه الفترة أربعة من ملوك البطالسة هم : بطليموس الرابع وبطليموس الخامس وبطليموس السادس وبطليموس السابع وانحدرت مصر في عهودهم من سئ إلى أسوأ فدب الوهن وساد الشقاق فى الأسرة الحاكمة . ولا شك أن هذا الحال أدى إلى تدهور الأكاديمية وإهمال المكتبة .

أما **الفصل الثامن** فيتناول تاريخ المكتبة والأكاديمية فى أواخر عهد البطالسة ١١٦-٣٠ ق.م. وهذه الفترة عاشت فيها مصر أيضاً حقبة من النزاع المستمر بين أفراد الأسرة الحاكمة فى الوقت الذى ازدادت فيه قوة روما وبطشها وتدخلها الفعلى فى الشئون المصرية ، كما شهدت هذه الفترة الخلاف بين كليوباترة وأخيها . ويستعرض المؤلف فى هذا الفصل التخبط الشديد بين المؤرخين حول حريق مكتبة الإسكندرية والاضطراب والغموض الذى يكتنف هذا الحريق ، فمنهم من يصمت صمت الموتى ومنهم من يضطرب فى روايته . ويروى المؤلف أن مارك انطونيو قام بتعويض كليوباترة عن الخسارة التى حدثت بالمكتبة بإهدائها ما يقرب من ٢٠٠,٠٠٠ مجلد من مكتبات برجامون .

أما **الفصل التاسع** فيتناول تاريخ المكتبة والأكاديمية من عهد أغسطس إلى آخر حكم كلوديوس ٣٠ ق.م. - ٥٤م. وهى الفترة التى انقرضت فيها دولة البطالسة وخضعت مصر للحكم الرومانى وأصبحت مجرد مخزناً للغلال للامبراطورية الرومانية وأصبحت الإسكندرية بالنسبة لهم مركزاً تجارياً ، ولم يروا فى المكتبة والأكاديمية سوى ملجأ لبعض فلاسفة الإغريق . وكان لهذا التحول أثره

الكبير فقل عدد أعضاء الأكاديمية وتحولت إلى معهد دراسى وانصرف العلماء عن بحوثهم ودراساتهم . إلا أن الرخاء والأمن والطمأنينة التى تمتعت بها مصر أيام أغسطس (٣٠ ق.م. – ١٤م.) كان له أثر جيد فى تحسن حالة الأكاديمية .

ويتناول المؤلف فى **الفصل العاشر** تاريخ المكتبة والأكاديمية إلى آخر عهد كراكلا (٥٤-٢١٧م.) ويقول المؤلف عن هذه الفترة «إن أول ما نلحظه عن نشاط الأكاديمية فى العهد الرومانى قلة اهتمام الأعضاء بالبحوث ، فلم تعد البعثات تجوب الأقطار لجمع المعلومات ولم يعد أعضاء الأكاديمية يهتمون بما كان البطالسة يشجعونهم على متابعته من بحوث ... وقد نال الفلاسفة وأعضاء الأكاديمية قسطاً كبيراً من التعذيب والاضطهاد ولا سيما أتباع أرسطو» .

أما **الفصل الحادى عشر** فيتناول تاريخ المكتبة والأكاديمية إلى آخر العهد الرومانى (٢١٧-٦٠٠م) وهى الفترة التى قاست الإسكندرية فيها وعانت معاناة كبيرة وفقدت ما يربو على ثلث سكانها وتهدمت نواحى من حى البروكيوم كما تصدعت أسوارها ، واعتباراً من القرن الرابع الميلادى تقوضت أركان مكتبة الأكاديمية وحلت محلها السرابيوم وانتقلت إليها الحركة العلمية ، ويستعرض المؤلف أسماء بعض علماء هذا العصر ونشاطهم الفكرى مثل سنت بانتين وأمونيوس سكاس وغيرهم .

ويخرج المؤلف فى **الفصل الثانى عشر** من دائرة تاريخ مكتبة الاسكندرية إلى استعراض تاريخ العلوم والآداب فى القرنين السادس والسابع الميلادى. ويقول المؤلف أنه بسبب اجتياح جيوش الفرس لسوريا وفلسطين تدفقت على مصر أعداد كبيرة من سكان هذه البلاد واكتظت الإسكندرية باللاجئين من مختلف الجنسيات الأمر الذى أثر تأثيراً كبيراً فى العلوم والآداب بمصر قبيل قدوم العرب إليها ، كما كان لهجرة الكثير من السريان إلى مصر نتيجة للخطر الفارسى أثر كبير فى ازدهار اللغة السريانية بمصر حتى أصبحت هذه اللغة وآدابها من أهم اللغات التى تدرس بالإسكندرية فى ذلك الوقت وخاصة فى مجال الطب ، وظلت الإسكندرية فى هذا العصر مركزاً عظيماً لصناعة الورق والبردى كما كانت فى الوقت نفسه مركزاً كبيراً لصناعة السفن .

أما **الفصل الثالث عشر** فيتناول فتح العرب لمصر بقيادة عمرو بن العاص وفتح الإسكندرية ، وفي هذا يقول المؤلف «عندما تم لعمرو بن العاص فتح حصن بابليون والكثير من المدن والقرى المصرية بالوجه البحرى اتجه غرباً لمدينة الإسكندرية.. وعندما اقترب العرب من الإسكندرية هالهم ما وقعت عليه عيونهم من مظاهر تفوق ما شهدته عيونهم فى دمشق وبيت المقدس وأنطاكية» وقدم لنا المؤلف آراء القادة والمفكرين العرب فى الإسكندرية ووصفهم لها مثل عمرو بن العاص والاصطرخى والسيوطى والمسعودى وغيرهم ، ثم قدم لنا وصفاً لمعالم مدينة الإسكندرية وقصورها ومبانيها وحدائقها . ثم عرض لنا المؤلف خطة عمرو بن العاص فى فتح الإسكندرية وتجهيزاته العسكرية .

وتناول **الفصل الرابع عشر** روايات قدامى الكتاب والرحالة العرب عن مدينة الإسكندرية مثل البلاذرى فى فتوح البلدان وابن بطوطة في رحلته إلى الاسكندرية فى منتصف القرن الثامن الهجرى ووصفه لمدينة الإسكندرية ومنارتها القديمة وعمود السوارى .

أما **الفصل الخامس عشر** والأخير فيتناول حريق مكتبة الإسكندرية ويرد فيه المؤلف على الإدعاءات والمزاعم التى تقول أن عمرو بن العاص هو الذى أحرق كتب المكتبة وأخذ يفند هذه المزاعم شكلاً وموضوعاً ويقول إذا كانت أمة بدأت رسالتها بقول الله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ويدعو رسولها الكريم إلى طلب العلم فحاشى أن تقوم بهذا العمل .

ثم يختتم المؤلف كتابه بمجموعة من الملاحق عبارة عن صور وخرائط .